" نحو نظرية تربوية إسلامية: ملامح أولية "

بقلم: الأستاذ الدكتور/ عبد المجيد بن مسعود

- **مقدمة** :

تهدف هذه الورقة إلى تلمس معالم "نظرية تربوية إسلامية"، من خلال تدبر أولي لمفهوم المسئولية وما يرتبط به من مفاهيم يزخر بها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، مما يؤلف نسقا متراصا متماسك الحلقات، مع التأكيد على بعض تجليات المفهوم التطبيقية الدالة على رسوخه في بنية التصور التربوي الإسلامي، على اعتبار أن الأمر لا يعدو أن يكون، ضمن هذا الجهد التنظيري، مجرد تدبر وتفقه للمادة المرتبطة بمفهوم المسئولية وما يتعلق به كما أشرت، ثم استخراج وتأليف لكل ذلك في نسق يطبعه التكامل والشمول، فضلا عن الصدق النظري الذي لا يتطرق إليه الشك، ما دام الأمر يتعلق باستنطاق نصوص كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولا تدعي هذه الورقة قولا فصلا في الموضوع، وإنما فتحا لنقاش مثمر بناء، يرجى منه أن يؤتي أكله بإذن الله، في إرساء دعائم نظرية تحل مغاليق الفعل التربوي، وتضع اليد على أسراره وآليات فهمه واشتغاله.

- **أولا**: **تحديد المفاهيم** :

- **مفهوم التربية** :

يمكن تعريف التربية، استنادا إلى واقع الممارسة الإنسانية،بأنها عملية تشكيل وصياغة للكائن الإنساني، تتسم بالاستمرارية والتجدد، وتستهدف تنمية مجمل جوانبه ومكوناته، وقدراته واستعداداته، بحسب ما هو مهيأ له، وتستخدم لذلك كل الطرق والوسائل المتاحة، مادية كانت أو معنوية، وذلك وفق رؤية محددة للكون والحياة والإنسان والمصير، بهدف تأهيله لأداء ما هو منوط به من وظائف ومهام، ضمن المجال الذي هو عضو فيه.

- **مفهوم التربية الإسلامية** :

أما التربية الإسلامية، فهي تجسيد الحقائق والمعطيات السالفة الذكر، وفق رؤية الإسلام للكون والحياة والإنسان والمصير.

- **مفهوم النظرية** : "

" النظرية التربوية الإسلامية نسق من المفاهيم والمبادئ والقواعد، يمثل رؤية الإسلام الخاصة لتفسير الظواهر التربوية، ولتوجيه الفعل التربوي في جميع مستوياته، للوصول إلى الأهداف المنوطة بذلك الفعل".

- **ثانيا** : **خطوات بناء النظرية** :

إن أول خطوة في هذا السبيل،تكمن في بيان القاعدة التي يقوم عليها بناء النظرية التربوية المنشودة، والتي يمكن التمييز فيها بين أساسين،يتمثل أولهما في تحديد القصد العام للإسلام المتمثل في تعبيد الناس لرب الناس، مصداقا لقوله تعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"(الذاريات: ٥٦). ويترجم الإمام الشاطبي رحمه الله هذا المقصد العظيم في موافقاته، من خلال إبراز الوظيفة السامية التي من أجلها وضعت الأحكام الشرعية بقوله: " المقصد الشرعي من

وضع الأحكام إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدا لله اختيارا، كما هو عبد لله اضطرارا". وجوهر العملية التي يتم بها تحقيق ذلك المقصد، هو التربية التي تتميز بالعمق والتعقيد، ويتآلف فيها -في المفهوم القرآني - تعليم الكتاب والحكمة، وفعل التزكية.

ولما كانت العملية التربوية عملية قصدية ممنهجة، قائمة على مبادئ وقواعد وشروط علمية، مرتبطة بحقيقة الإنسان، باعتباره كائنا مفطورا على حقائق واستعدادات كامنة في أصل خلقته، فقد كان لا بد من أن تكون تلك القواعد والأصول مستخرجة من القرآن والسنة، لأنهما يمثلان العلم الخالص الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه،فهي وحدها القادرة على التعامل الرشيد مع الإنسان،لأنها تتضمن الأسرار، وتملك المفاتيح والأزرار، وهي قابلة لأن يشيد بها وعلى أساسها بناء نظري تربوي شامخ، يحمل بداخله خصائص الصدق والقابلية للتجدد المستمر، بما يؤهله لمواكبة الظواهر والمستجدات التربوية، وتأطيرها، فهما وتفسيرا وعلاجا وتصحيحا.

والخطوة الثانية في سياق تلمس نظرية تربوية أصيلة، هي "تقويم الواقع التربوي في ضوء النظرية العامة المعدة بعد تشخيصه.

والخطوة الثالثة هي صياغة نظرية تربوية جديدة، ترتبط من جهة بالنظرية التربوية العامة، وتستحضر الأزمة الراهنة من جهة أخرى، ثم تمحيص النظرية التربوية الجديدة من خلال التأكد من مدى انسجامها مع المقاصد العامة للإسلام" [١] .

من خلال هذه المقابلة التمحيصية، قد ينتهي بنا التأمل والاستقراء، إلى جوهر كامن في السلوك البشري، مفاده أن معنى المسؤولية واستشعارها لدى الإنسان بقدر من الأقدار،أو عدم استشعارها والغيبوبة عنها،هو الذي يفسر لنا سلوك الإقدام أو الإحجام، تجاه موقف من المواقف، إيجابا أو سلبا [٢] .

وإذا ما أثبت هذا المصطلح وما يتضمنه من مفاهيم مصداقيته وجدارته عند التمحيص والاختبار،وتقليبه على شتى الوجوه، من خلال عرضه على شبكة المفاهيم والقيم، نكون أمام أساس صالح لحمل بناء نظري قائم على خاصيتي الثبات والشمول.

- **مفهوم المسؤولية** : **تعريف وتأصيل** :

جاء في لسان العرب لابن منظور: " وتساءلوا: سأل بعضهم بعضا، وفي التنزيل العزيز: " واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام" (...) ومعناه تطلبون حقوقكم به" (...) وقوله عز وجل: " وسوف تسألون" معناه سوف تسألون عن شكر ما خلقه الله لكم من الشرف والذكر.(...) وقوله عز وجل:" وقفوهم إنهم مسؤولون" قال الزجاج: سؤالهم سؤال توبيخ وتقريع لإيجاب الحجة عليهم، لأن الله جل ثناؤه عالم بأعمالهم." [٣]

---

[١] - انظر الخطة البحثية للدكتور عبد السلام الأحمر " أساسيات لبناء نظرية تربوية أصيلة" المقدم ل "مشروع إحياء نظام تربوي أصيل" بدولة قطر.

[٢] - وهذا هو الاقتناع الذي آلت إليه الخطة البحثية الآنفة الذكر.

[٣] - مادة سأل

وجاء في عمدة الحفاظ للسمين الحلبي: " قوله تعالى: " واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام" أي تتناشدون به وتتقاسمون. فتقول: أنشدك بالله وبالرحم"، وجاء أيضا: " ولا معارضة بين قوله: " فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان" ، وقوله تعالى: " فوربك لنسألنهم أجمعين"، إذ يوم القيامة ذو مواطن، فيسألون في موطن ولا يسألون في آخر، أو يسألون سؤال تقريع وتوبيخ لا سؤال تكرمة." [٤]

وقال تعالى: " فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين"[٥].

إن تدبرنا لهذه الآيات البينات الدائرة على مفهوم المسؤولية، يفضي بنا إلى الاستنتاجات التالية:

- إن علاقات الرحم بين الأقارب، في الدائرة الضيقة، وبين الإنسان ومن يقاسمهم الانتماء إلى الدين الواحد،في الدائرة الواسعة، تضفي على مسؤولية هؤلاء تجاه بعضهم البعض بعدا عميق الغور. بل إن نطاق تلك العلاقة، يزداد رحابة واتساعا ليضم بين أكنافه الإنسانية جمعاء،باعتبارها مجتمع دعوة ترتب العلاقة به مسؤولية البلاغ واستفراغ الوسع من طرف من حملوها بموجب اعتناقهم لها واتشاح صدورهم برمزها وشعارها، تجاه من هم خارج إطارها. ومن البديع في أمر هذه العلاقة، أنها تمتد بأجنحتها لتشمل ما سوى النفوس الآدمية، من مواريث مادية ومعنوية[٦]
- أن المسؤولية كما هي مذكورة في الآيات الكريمة تلقي ظلالا من الرهبة والجلال على الموقف، باعتبارها ترتبط باليوم الآخر. وما دامت الدنيا مزرعة الآخرة، فإن من شأن ذلك أن ينقل صفة الرهبة والجلال إلى شعور الإنسان، وهو يتحرك في تلك المزرعة المتعددة المسارب والدروب والشعاب، فلا يسعه إذ ذاك،في حالة اليقظة والصفاء، بفضل الله وتوفيقه،إلا أن يجاهد نفسه من أجل تحصيل أعلى المراتب والدرجات، وهو يضطلع بالمسؤوليات.
- إن قول الله عز وجل: " وسوف تسألون" جاء مباشرة بعد قوله عز وجل: " "وإنه لذكر لك ولقومك"، والذي تعود عليه الهاء في " وإنه" هو القرآن الكريم الذي هو رسالة البلاغ،والشكر المقصود هنا، يتموقع فيه القيام بواجب ومسؤولية البلاغ، ضمن أعلى درجات سلمه ، إن لم يكن أعلاها. ويستوي في واجب الشكر، أي القيام بحمل مسؤولية البلاغ، الأفراد والجماعات، والأمة جمعاء.
- إن ما ورد من معنى التحقير في قوله تعالى: " ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون" ومعنى التقريع في قوله تعالى: " وقفوهم إنهم مسؤولون" ينبغي أن يكون حافزا يدفع بأولي الألباب، إلى أن يربأوا بأنفسهم عن أن يكونوا في عداد تلك الزمرة التي تبوء بالخسران، وأن يكونوا من المسارعين في الخيرات، لا بالنسبة

---

٤ - باب السين، مادة سأل، عمدة الحفاظ، في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي عالم الكتب بيروت. ط١- ١٤١٤ه/ ١٩٩٣م

٥ - عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام يسأل عن رعيته،والرجل يسأل عن رعيته

٦ - يتحدث الدكتور طه عبد الرحمن في بحث تحت عنوان: " مبدأ التراحم وتأسيس الحداثة الأخلاقية" عن علاقة رحمية بين الإنسان من جهة، والتراث والطبيعة والحيز من جهة أخرى. وهي علاقة أتت عليها الحداثة بفعل تنكرها لكل شيء. والبحث عبارة عن درس ألقي ضمن الدروس الرمضانية لسنة ١٤٢٩ هجرية. وجدير بالذكر هنا أن العلاقة الرحمية بين الإنسان، وبين الكون وما فيه من شأنها أن تلقي في روعه شعورا حادا بالمسؤولية، يحرك وجدانه، ويزلزل كيانه،ويدفعه في ظل ظروف نفسية سليمة إلى أداء الأمانة وتحمل المسؤولية بحقها.

لخصوص الذات، بالمعنى الضيق، بل بالمعنى الواسع الذي يفيض من خويصة الذات إلى سائر الذوات، ولن يكون ذلك إلا في ظل استشعار ذي شحنة عالية للمسؤولية بمفهومها القوي والعميق.

- **ب- تمايز مستويات المسؤولية** :

تتراوح المسؤولية، بحسب تعدد أنواع النفوس، بين درجات ثلاث، ينضوي تحت كل منها مستويات شتى،وهذه النفوس هي النفس الأمارة بالسوء،والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة.وأعلى هذه النفوس حظا بالنسبة للتحلي بالمسؤولية حملا على صعيد الوعي والشعور، واستفراغا للوسع على صعيد الممارسة والأداء هي النفس المطمئنة بالطبع.وأحطها بالطبع هي النفس الأمارة بالسوء. أما النفس التي تسعى إلى التحرر والارتقاء، من خلال المجاهدة لمصارعة الغرائز والطباع الهابطة،فهي النفس اللوامة التي أقسم بها الله سبحانه وتعالى تكريما لأصحابها،وحفزا لهم على تخطي حاجز الحوم حول الحمى، ومخاطر الوقوع فيه.ووظيفة التربية الأصيلة إنما هي مساعدة الخلق والأخذ بأيديهم لاقتحام العقبة ،والخروج عن داعية الهوى بتعبير الإمام الشاطبي رحمه الله.

- **الخطوة الرابعة**:

هي النظر والتأكد من قابلية النظرية للتطبيق في المدرسة والمجتمع[٧].

والحق أن هذا المعيار أو هذه الخطوة، تشتد الحاجة إليها إذا تعلق الأمر بالنظريات ذات الطابع البشري الموسوم بالتأرجح والقصور، أما الحاجة إليها إذا تعلق الأمر ببناء نظرية تربوية على أساس الإسلام،فهي لا تعدو أن تكون بهدف التدقيق في سلامة الاستمداد من النبع من جهة، والتأكد من سلامة الصياغة والتنزيل من جهة أخرى، فضلا عن شمولية النموذج المقترح ليكون أساسا لذلك البناء، لأننا نعلم علم اليقين، أن النظام التربوي الإسلامي، لحمته وسداه من مادة الإسلام، وتصوره للكون والألوهية والإنسان والحياة،وهدفه الأساس هو خدمة الفطرة، واستخراج مكنوناتها وذخائرها.

- **ج – مقومات المسؤولية على المستوى الإجرائي**:

ج-١ مقوم مواصفات المتخرجين:

" في هذا المستوى تتم صياغة مواصفات التلاميذ، في نهاية كل مرحلة تعليمية، بشكل يبرر ما ينتظر تحققه لدى الناشئة من سمات ومواصفات، ذات صلة بتشرب روح المسؤولية، وما يترجمه من قيم وأخلاق، من قبيل " حب الله عز وجل" ، " وحب الوالدين وبرهما" .[٨]

ج -٢ مقوم المضمون:

" ويكون ذلك بالتركيز على الحقل المفاهيمي للمسؤولية في المواد الإسلامية، وجعل كل أحكام الشريعة وأخلاقها مؤسسة على المسؤولية الشرعية تنطلق منها وتتقوى بممارستها، فلا يوجد مضمون إسلامي إلا وله صلة وثيقة بالمسؤولية بشكل أو بآخر"[٩]

---

٧ - انظر خطة الدكتور عبد السلام الأحمر البحثية

٨ - المرجع السابق بتصرف.

٩ - المرجع السابق. وهنا لا بد من تنبيه إلى أن المضمون الإسلامي يستغرق سائر مستويات المعرفة والوجود والقيم، و يحسن بنا هنا أن نذكر بتصور الدكتور ماجد عرسان الكيلاني حول المظاهر الثلاثة للعبادة: المظهر التعبدي والمظهر الكوني، والمظهر الاجتماعي. وكذلك تصور الدكتور علي عيسى عثمان اللذين أوردتهما ضمن الدراسة المسحية في الخطة البحثية المقدمة لمشروع الإحياء.

• **د – الحسم في مركزية " المسؤولية" كأساس لبناء نظرية تربوية إسلامية**:

إن إمعان النظر في مفهوم المسؤولية يسفر لا محالة عن غناه الفلسفي والنظري،ومن ثم عن صلاحيته ليكون أساسا يقام عليه بناء نظرية تربوية أصيلة،تتصف بمصداقية عالية، تؤهلها لاحتضان نموذج تعليمي وتربوي، كفيل بتحقيق قدر كبير من النجاح على مستوى تشكيل شخصية إنسانية صالحة مصلحة. ورب قائل يقول: إن مفهوم التوحيد أو الإيمان أولى باتخاذه أساسا لنظرية تربوية تلك صفاتها، ولنموذج تربوي تلك خصائصه. والحقيقة أن التأمل في المسألة يؤدي حتما إلى ترجيح مبدأ أو مفهوم المسؤولية، باعتباره مبدأ ذا طبيعة حركية، ذلك بأن المسؤولية تعبر من خلال صيغتها المتضمنة لمعنى التكليف، عن موقف مشخص في الزمان والمكان، فهي كيان ذو بعدين: أحدهما شعوري وجداني، والآخر عملي سلوكي.

أما المصطلحات والمفاهيم الأخرى التي قد ينظر إليها بحسبانها قاعدة أو أساسا للنظرية التربوية الإسلامية، فهي لا تعدو أن تكون ممثلة للجوهر المعنوي أو المحتوى العقدي(الفلسفي) الذي تتغذى عليه المسؤولية عبر بعديها النظري،والوجداني والسلوكي. والمقصود بتلك المفاهيم: مصطلح ومفهوم الإيمان، أو التوحيد، أو التزكية أو العمران.

وينطبق الأمر نفسه،على مصطلح ومفهوم الاستخلاف، إذ إن الخليفة إما أن يستشعر عظم الأمانة والمسؤولية، وإما أن يفرط فيها، وفي كلتا الحالتين يظل الأمر في نطاق المسؤولية.

وقل مثل ذلك في التعامل مع مقاصد الشريعة للإمام الشاطبي رحمه الله، ذلك بأن حفظ جميع المقاصد، يحتاج إلى الإنسان المشبع بروح المسؤولية، فهو المؤهل لحفظ ميثاق العهد المتمثل في قوله تعالى: " وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون"[١٠]

إن النفس إذا كانت مستشعرة للمسؤولية المرتكزة على الإقرار الشخصي المؤسس على الإشهاد الرباني، فهي تتدرج في العمل الصالح، بحسب درجة الإيمان والتزكية التي تتناسب في علوها وارتقائها وقوتها مع درجة العلم بحقائق الإيمان، واليقين بثمراتها على مستوى تحقيق السعادة في الدارين،وعلى وجه الخصوص على مستوى الآخرة التي هي الحياة الحقة مصداقا لقوله تعالى: " وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون"

ومن شأن المسؤولية كمفهوم مركزي، أن تهيمن على العلاقات الخمس التي جعلها الدكتور ماجد عرسان الكيلاني قوام الأساس الفلسفي للنظرية التربوية، وهي علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بأخيه الإنسان، وعلاقته بالكون وعلاقته بالدنيا، وعلاقته بالآخرة[١١]، ويقتضي اكتمال التصور، أن تضاف

---

١٠ - إن الله سبحانه وتعالى يقطع الطريق في هذا النص الكريم على أي ذريعة باطلة قد تتخذ للتنصل من مسؤولية العهد، تتراوح بين أمرين لا ثالث لهما: التذرع بالغفلة، أو التذرع باتباع الآباء، فكلا الذريعتين غير مقبول، في ظل وصول الشرع من جهة ، ووجود العقل الذي يناط به التكليف.

١١ - الحقيقة أن العلاقة بالدنيا والعلاقة بالآخرة لا يمكن فصلهما، لأن الأولى منهما مزرعة الثانية كما جاء في الحديث.

علاقة أخرى، هي علاقة الإنسان بنفسه. وبتوحيد العلاقتين بالدنيا والآخرة،تظل العلاقات خمسا .وتدخل كل منها في مجال المسؤولية الرحب على المستوى النظري.

ومن هذا المنطلق،تترتب على الإنسان مسؤولية تجاه نفسه ومسؤولية تجاه ربه، ومسؤولية تجاه أخيه، ويقاس عليها ما في حكمها،كالأسرة والجماعة المسلمة والأمة المسلمة، ومسؤوليته تجاه الكون الذي يكتنفه ويشكل مجاله الحيوي، ومسؤوليته تجاه الدنيا التي هي مزرعة الآخرة.

ويمكننا القول على سبيل التشبيه،إن المسؤولية تحلق بجناحين: جناح الحرية وجناح العلم، فهما شرطا وجود، وكلما زاد نصيبهما تحقق لها قدر من النضج والعمق يتناسب طردا مع مقدار تلك الزيادة. وبحسب هذه القاعدة، تتفاوت النماذج البشرية التي تتخرج في مدرسة المسؤولية بجميع روافدها، فيما تحققه من سمو وارتقاء، قد يتمظهران في مستوى المراقبة لله عز وجل،التي عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: " فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[١٢] أو بلوغ مستوى الإحسان الذي عبر عنه عليه الصلاة والسلام بقوله: " أن تعبد الله كأنك تراه"[١٣]

ومن العجيب في أمر المسؤولية كأساس نظري مرجعي،أن كلا من جناحيها: العلم والحرية، يقتضي الحفاظ عليه حضور المسؤولية بشكل بين، فالإنسان مسؤول بموجب ذلك عن رصيد الحرية والعلم الذي لديه.ونستحضر هنا قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه،وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به" [١٤].

كما نستحضر الحوار الذي دار بين الصحابي الجليل حارثة رضي الله عنه، والرسول صلى الله عليه وسلم حول حال اليقين والاطمئنان التي كان حارثة يجدها في أعماق نفسه،وكيف كانت خلاصة الحوار متمثلة في خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم لحارثة بقوله: " يا حارثة، عرفت فالزم"[١٥]. فواضح هنا أن اللزوم المطلوب من حارثة، إنما هو لزوم مقتضيات المعرفة والعلم، أي تحمل مسؤولية تلك المعرفة بالثبات على رعاية ما تتضمنه من حقائق وبصائر وتوجيهات ضابطة للعمل والسلوك، فضلا عن منهج التفكير وأسلوب التحليل.

ويؤكد هذه الحقيقة أيما تأكيد، قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال أبو هريرة: كيف إضاعتها ؟ قال: إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"[١٦]، لأن من تسند إليهم الأمور وهم غير أهل لها،سواء تعلق الأمر بالأهلية العلمية أو الأهلية الخلقية،أو بهما معا، هم أبعد مايكونون عن تحمل مسؤولية الأمانة الملقاة على عواتقهم.

---

١٢ - رواه مسلم

١٣ - نفسه.

١٤- رواه الطبراني

١٥ - قال ابن رجب في شرح البخاري:" وهو حديث مرسل، وقد روي مسندا باسناد ضعيف"

١٦ - رواه البخاري.

ونستنتج من الحديث أن تلويح الرسول صلى الله عليه وسلم بحتمية انتظار الساعة عند حصول السبب الموجب لها،إيذان بالخراب الذي يتربص بالعمران لامحالة.

والسنة النبوية المطهرة توفر نموذجا تفسيريا بالغ العمق والدقة، هو نموذج السفينة،التي يمثل فيها التفريط في مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خرقا للسفينة، ومن ثم تعريضا لها لخطر الغرق ولو بعد حين. فالأمر يتعلق بخطورة التلاعب بمفهومين أساسيين هما مفهوم الحرية ومفهوم الملكية.

إن الذين يوفون الأمانات حقها،هم الذين أوتوا قسطا وافرا من الشعور بالمسؤولية، كلما زادت جرعاته وتضاعفت شحناته،زادت بركة ما يجنونه وراء ما يكابدون من سعي ويبذلون من جهد.

- **هـ – المسؤولية وشبكة القيم** :

إن المسؤولية مجسدة في الإنسان المسؤول،لا بد لها من أن تتخلق في رحم القيم، في جميع مستوياتها وأنواعها. وإذا كانت كل قيمة من القيم تبث إيحاءاتها الخاصة في ثنايا القلب، وتترك ظلالها على صعيد الوعي والسلوك، في ارتباط بنوع محتواها، فإن تكوين شاكلة الإنسان المسؤول في تكاملها وتوازنها رهين بتلاقح مجموع القيم،على مستوى سائر قواه الشعورية واللاشعورية. فالمسؤولية باعتبارها شعورا دافعا، ووازعا محركا للسلوك، وصانعا للمواقف،تستمد قوام وجودها من تمثل الإنسان لمعاني تلك القيم، وتتنوع تجلياتها تبعا لتنوع تفاعلاتها عبر مشاهد الحياة، وما يعتريها من علاقات وأحداث. فمن خلال تنقل الإنسان المسؤول بين تمثلاته للقيم، بنوعيها : الفردية[١٧]، كالصدق والإخلاص والعفة والأمانة والبر والإحسان والرحمة والجود، والذكر والشكر، والزهد والصبر، والنصيحة والحياء.

والجماعية كالتسامح والتعاون والتناصح والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الخ ، من خلال ذلك،يتخلق وازع المسؤولية في نفوس المكلفين،ويتخذ طابعا روحيا يأخذ بمجامع الجوارح والقلوب في اتجاه الاستقامة والطمأنينة.

إن النظام التربوي الأصيل، الذي يراد له أن يتصف بالكفاءة، بفضل نوعية القيم التي تسبح في سديمه، يقتضي أن تكون تلك القيم(...) واضحة جلية في مرجعيتها ومقاصدها ومقاصدها، وغاياتها الكلية، وأهدافها المرحلية، وأولوياتها، ومعاييرها، والمؤشرات المستخدمة لتقويم مدى الالتزام بها من قبل القائمين بها والعاملين عليها، والأساليب والمناهج والإجراءات التي توظف للتنبؤ بإمكانية حدوث خلل أو انحراف عند التطبيق وقبل وقوعه،وإدراكه عند وقوعه. ولا بد للأنظمة التربوية ومنظوماتها القيمية أن تكون ملتزمة باتخاذ الإجراءات والقرارات الكفيلة بتصحيح الخطأ أو الانحراف فور وقوعه،وتحديد المسؤولية وعواقبها نتيجة ذلك."[١٨]

---

١٧ - من الملاحظ أن هذه القيم قد يجمع بعضها بين الطابع الفردي والطابع الجماعي، بحسب الملابسات والمواقف التي تكتنف الناس.

١٨ - انظر الدكتور محمود رشدان، في خطته البحثية: " قيم التربية وتربية القيم" المقدمة لفائدة:" مشروع إحياء نظام تربوي أصيل"

- **و- دور التربية الإيمانية والعقدية في تعميق أساس المسؤولية:**

سبق أن أشرت إلى أن طبيعة البعد الإيماني في علاقته بالمسؤولية، تجعله بمثابة المحرك الدافع، أو القلب الفياض الذي يمد شراييننا بنسغ الحياة ومقومات الاستمرار، وهذا يرتب على أي نظام تربوي يحمل عنوان الأصالة والتأصيل، مسؤولية إيلاء عناية كبرى، في التعامل مع هذا البعد، من حيث نوعية الموقع الذي ينبغي أن يكون له في عمق النظام ، من حيث ما يلزم أن يكون له من نجاعة وفعالية ، تمكن النظام من بلوغ ما هو منوط به من أهداف.

إن هذا المطلب العزيز يرتب على المختصين التربويين، أن يستفرغوا الوسع في تدقيق الأساليب والمناهج التي تصاغ من خلالها دروس العقيدة المقدمة للمستهدفين بالتربية والتعليم، عبر كامل مسارهم التعليمي، أي أن يمكنوا العاملين في النظام المنشود من تجاوز الاختلالات التي تشكو منها أساليب ومناهج التربية الإيمانية في المشهد التربوي، والتي تحرم الأجيال الناشئة من جني الثمار المفروض أن تجنى في ظل شروط تربوية ومنهجية سليمة، أوهي تقلل من غنى تلك الثمار، ومما يترتب عليها من آثار. ومن مظاهر الاختلال الماثلة في الممارسات التربوية المتعلقة بتقديم التربية الإيمانية والعقدية في المؤسسات التربوية،ما يتعلق بالتصور القائم عن الموضوع في أذهان القائمين على التربية، وهو تصور ينظر إلى حقائق العقيدة والإيمان، باعتبارها منحصرة في الأمور الغيبية، " أما ما سواها من تلك الأمثلة التي ذكرناها(ويقصد هنا: حرية الإنسان وحقوقه،أو حقيقة التعلم، أو حقيقة التكافل، أو حقيقة السعي التعميري)، فإنها لا تدخل ضمن تلك الدائرة وإنما توضع في دائرة أخرى، قد تسمى أحيانا بدائرة الشريعة، في مقابل دائرة العقيدة، وهي دائرة أدنى منها،وفي الغالب الأعم لا يقع الربط بينها وبين حقيقة الإيمان في اكتماله بها،فضلا عن تقومه بها، وحينئذ فإن المنشأ على تربية هذه طريقتها، لا يكون له من إيمانه دافع قوي إلى التعمير وأسبابه من العلم والوحدة والتكافل وما في حكمها، فلا يكون إذن نهوض حضاري بهذه الحقيقة التربوية.

ولذلك، فإن الأمر يستلزم فيما نقدر، أن تقع مراجعة للتربية الإيمانية العقدية يعاد فيها النظر:

- في مفهوم العقيدة نفسها.
- وفي مفرداتها من حيث ذاتها.
- وفي مفرداتها من حيث ترتيبها في الأهمية.
- وفي الطريقة التي تقدم بها تلك العقيدة لتتحملها العقول بالجزم الواعي.

وفي الطريقة التي تقدم بها لتتحملها الإرادة تحملا دافعا للعمل التعميري."[١٩]

إن هذه المنهجية المبتورة في التعامل مع دروس التربية الإيمانية والعقدية، من شأنها تنشئة نماذج بشرية مصابة بالضعف الحركي،موصومة بالانعزال عن معترك الحياة،في أبراج الذات، وهي بذلك تحسب أنها تحسن صنعا، وما هي

١٩ - انظر الخطة البحثية التي قدما الدكتور عبد المجيد النجار للمشروع المذكور

كذلك قطعا. والحقيقة أن التشوه المنهجي في التعاطي مع التربية الإيمانية والعقدية، لم ينحصر فقط في عملية الفصل التعسفي غير المشروع بين الجوانب الغيبية من جهة والجوانب الاجتماعية والعمرانية من جهة أخرى، بل إنه طال حتى طريقة تقديم الجوانب الغيبية في حد ذاتها.

- **ز – دور التربية الفكرية في صقل حاسة المسؤولية**:

وإذا كان الإخلال بمقتضيات الرشد المنهجي في موضوع التربية الإيمانية والعقدية، يؤدي إلى التشوهات الخلقية السالفة الذكر، لدى الناشئة، فإن للإخلال بمقتضيات المنهج السليم في التعاطي مع التربية الفكرية، هو أيضا وخيم العواقب على مستوى تشكيل الشخصيات والعقليات.

وإذا كان القرآن الكريم والهدي النبوي الشريف قد قدما نموذجا منهجيا غاية في الرقي والتكامل على مستوى التربية الفكرية، يفضي إلى تنمية المدارك، وشحذ حاسة الموازنة والنظر، وتوريث لذة الاكتشاف، وإنتاج المعارف والعلوم، وإلى إكساب المتعاملين مع معطيات الوحي وحقائقه خصالا "في التفكير النظري والعملي قوامها على سبيل المثال: الحرية في النظر والواقعية في المنطق، والحوارية في التدافع، والتبين في الخبريات،والمقارنة والنقد في محاكمة الآراء،وغير ذلك من القواعد المنهجية التي شكلت الثقافة الإسلامية قرونا والتي توصل بها المسلمون إلى تلك المدونة الواسعة النطاق من العلوم الطبيعية والشرعية القانونية، والإنسانية، عليها انبنت عليها تلك الحضارة الإسلامية العظيمة" ٢٠، فإن ما يشهده الواقع التربوي، فيما يتعلق بهذا الجانب من والصياغة لعقول المتعلمين،يكشف عن اختلالات تنضاف إلى الاختلالات السابقة وغيرها، لتشكل عائقا حقيقيا في وجه البناء التربوي الرشيد.

ويتعلق الأمر في هذا الصدد بالجنوح عن المنهج القرآني المضيء في تنمية الفكر وتسديد النظر،للسقوط في ممارسات خاطئة،تجمد الفكر وتعوق انطلاقه في الاتجاه الصحيح، وذلك من قبيل: " أحادية النظر،وحرفيته وخطيته، و(...)المثالية التي لا تهتم كثيرا بالواقع في بعده الطبيعي والتاريخي والإنساني، وعلى ضعف كبير في المقارنة والنقد، لتبين الحق من الباطل والصحيح من الخاطئ، وعلى التقيد التقليدي بآراء السابقين، أو آراء المشايخ والأقطاب، وعلى الانغلاق عن الآخرين رفضا للحوار الذي تكون فيه المحاجة لمحاكمة الآراء" ٢١.

ومن الجدير بالذكر أنه إذا كان الإيمان أداة دفع وشحن وتحريك وتغذية لحاسة المسؤولية، فإن الجانب الفكري، الذي لا يمكن فصله مطلقا عن عناصر الإيمان،يشكل بالنسبة لها أداة العمل والتخطيط،من أجل أن تقع حركة الإنسان في المحل الصائب، فتتجنب الإهدار والضياع، وتتجه توا إلى المقصود.

وخلاصة القول: إن المسؤولية لا يقدرها حق قدرها،إلا مؤمن راسخ الإيمان يستخدم فكره بالشكل السديد الذي يمكنه من ربط الأسباب بالمسببات، وترتيب

٢٠ - المرجع السابق

٢١ - المرجع السابق

النتائج على المقدمات، ويسعى باستمرار إلى الارتقاء بمستواه الفكري، عن طريق الاستزادة من العلم،وتدقيق أدوات النظر،لبلوغ الرشد المنهجي الذي يجنب التعثر وخيبات الأمل، ويبارك النتاج والمحصول.

- **ك: حاسة المسؤولية، بين الدافع الإيماني والرشد الفكري، وبين الوعي الحضاري:**

إن من طبيعة الإنسان،أن يدخل في بناء شاكلته خيوط شتى وروافد متعددة يسهم كل منها بقسط من الأقساط، في تلوين تلك الشاكلة بلون معين يتشابك مع الألوان الأخرى لصناعة ما يشبه اللوحة، هذه اللوحة التي إما أن تكون قلقة مشوشة، وإما أن تكون على انسجام، بحسب طبيعة العناصر الداخلة في البناء.

وما اللوحة المقصودة هنا إلا مواد المنظومة التربوية، وما تتضمنه من خبرات،وما يكتنفها من أشخاص وفضاءات،بشكل رئيس.

في سياق هذه الحقيقة التربوية،يجدر بنا أن نثير قضية الوعي الحضاري، باعتباره أحد الأهداف القيمة التي تسعى المنظومات التربوية إلى إنجازها عند التعامل مع الناشئين. فمن المعلوم أن مادة الحضارة الإسلامية، تشكل أبرز المواد التي تحمل على عاتقها ذلك الهدف الكبير، وأنه بقدر ما يتوافر لها من عنصر الصرامة المنهجية، والعمق الفلسفي،فإنها توفر محصولا غنيا بخصوص الوعي الحضاري الذي تحتاج إليه الأمة كأحد أهم الأسلحة في معركة إثبات الوجود،وتحقيق الاستمرار والبقاء.والعكس صحيح تماما، فبقدر ما تخضع هذه المادة – ويقاس عليها ما في حكمها بشرطه - لفوضى منهجية وتسطيح فلسفي قد يكون نتاجا لتلك الفوضى، وينطبق هذا على الحالة التي نحن بصددها.

وهذا ما وضع عليه الإصبع أحد [٢٢] الأساتذة والمفكرين المرموقين، الذين عايشوا الموضوع لعشرات السنين،فأدركوا أسراره ودقائقه، وانتهوا بشأنه إلى نتائج وتصورات بشأن المخرج والحل.

وخلاصة المشكل تتمثل في الطريقة التجزيئية التي تسلك في تدريس مادة الحضارة الإسلامية، بحيث تفوت على الناشئين والفتيان أن يدركوا العلاقة الوطيدة بين عطاءات الحضارة الإسلامية، وبين عقيدة الإسلام التي أحكمت أسسها وفجرت ينابيعها،وفي ذلك خسارة وأي خسارة،لأنها تنعكس سلبا على طبيعة الوعي الحضاري الذي يرجى أن يكتسبه المتعلمون، بل إنها لتترك آثارها السلبية حتى على فهم حركية الإسلام، باعتباره دينا بانيا للحضارة في مستواتها الأكثر تألقا وبهاء.وهذا الأثر هو ما عبر عنه الدكتور عماد الدين خليل بالانكفاء، في مقابل الدفع الحضاري الذي يسمح بتوليده الاستثمار المنهجي لمادة الحضارة الإسلامية، من حيث هو تناول قائم على التجانس والشمول، فهذا التناول وحده، هو الذي يملك أن يساعد على تخريج جيل يتميز بشعور الانتماء لأمته، والاعتزاز بميراثها ، والارتباط بمصيرها إلى أبعد الحدود.

---

٢٢ - انظر الورقة البحثية التي قدمها الدكتور عماد الدين خليل لفائدة مشروع الإحياء، تحت عنوان: " شروط الدفع الحضاري بين الفعالية والانكفاء، وتأثيراتها التربوية" .

إن من المطلوب حضاريا وتربويا،"وضع اليد[٢٣] على القوى الفاعلة التي مكنت الأمة وقياداتها من أن تنطلق لبناء حضارتها، استنادا إلى شبكة من الشروط المؤكدة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم تحديد العوامل المضادة التي قادت الأمة إلى الانكفاء الحضاري وغياب القدرة على التجديد والاجتهاد والإبداع"[٢٤]، ثم التأكيد على أن معاودة النهوض ممكنة في ظل توفير الشروط التي كانت وراء التأسيس الأول ورفع بناء الحضارة.

إن من شأن آثار التربيةالإيمانية والفكرية، والآثار المتولدة من خلال تدريس مادة الحضارة الإسلامية ، ضمن شروط منهجية سليمة،أن تتضافر في سبيل بناء نشء عتيد، يحمل عبء المسؤولية، مسؤولية الانتماء والولاء، لخير أمة أخرجت للناس، بشرط التزامها جادة الخيرية،ولتكون شاهدة على الناس.

- **خاتمة** :

إنه مما لا شك فيه، أن بناء نظرية محكمة،تشكل خارطة للسير في دروب التربية المعقدة والمتشعبة،واستراتيجية حضارية للبناء، ليس بالأمر الهين ولا اليسير، ومع ذلك،فلاكتمال الصورة وتمام الإنجاز، لا مناص لأمة تنشد الكرامة والريادة والشهادة على الناس، من أن تدقق باقي الأعمدة والأركان، لإحكام خطة التنزيل، ومراعاة شروط التنزيل، من تحديد للغايات والأهداف،في ضوء الكتاب والسنة، وتحديد خصائص المتعلم وسماته الشخصية،ومتطلبات النمو لديه،، والمؤثرات والمشكلات التي تواجه بناء شخصية المتعلم ومنهج التعامل معها، وطبيعة المنهاج التعليمي في النظرية الإسلامية، وتحديد السلم أو المسار التعليمي، والخطط الدراسية، وطبيعة المعلم وخصائصه،وطبيعة التكوين الذي يلائمه.[٢٥]

" إن أي نظرية تربوية أصيلة وفعالة تستطيع انتشال الأمة من وهدة التخلف والعجز والوهن، لا تملك أن تحفز الإنسان على العمل والبناء، وأن تكسبه المقدرة على الإبداع والمبادرة والتضحية،إلا إذا اعتمدت استراتيجية تحريكه من داخل ذاته، وتحميله مسؤولية الإنجاز الحضاري الرشيد، وكانت في غاية الوضوح والبساطة والارتباط بسعادته العاجلة في الدنيا، والآجلة في الآخرة وتملأ عليه سمعه وبصره، ولا تدع أمامه مجالا للامبالاة أو التقاعس والتخاذل"[٢٦].

وخلاصة الأمر وفقا لما سلف إيراده من معطيات ، أن نموذج المسئولية، نظرا لما يتسم به من بساطة ووضوح وشمول، يمكن أن يكون أساسا لبناء نظرية تربوية إسلامية حيوية واعدة، بما يملكه من قدرة فائقة على مستوى التفسير والتنظير، وهما مطلبان حيويان، يتيحان الانفتاح على عالم رحب وخصيب من الممارسة والتطبيق، ومن ثم التطوير والتجديد.

والله المستعان.

****

٢٣ - وهذا يؤكد الدكتور عماد الدين خليل على ضرورة إنجازه، في خطته المذكورة.

٢٤ - المرجع السابق

٢٥ - هذه القضايا هي التي اقترح الدكتور زكي ماجد الجلاد دراستها في خطته البحثية التي قدمها ل :" مشروع إحياء نظام تربوي أصيل.

٢٦ - الخطة البحثية المقدمة للمشروع السالف الذكر، الدكتور عبد السلام الأحمر.